فى حرب الحسن والحسين :

هل تحتاج إيران والعراق إلى "كامب دافيد" أخرى

أنيس منصور

التحرير

لا توجد طرق كثيرة للحرب . هناك طريقة واحدة هى : أن تغزو .

وبعد أن تغزو يجب أن تفكر فى نهاية الحرب . وليس أصعب من بداية الحرب إلا نهايتها . ولا توجد طريقة أفضل لإنهاء الحرب إلا بأن يعلن أحد الطرفين أنه انهزم . فهل تعلن إيران ذلك ويبادر العراق ؟ .. ليس بهذه السرعة . فالهدف من الحرب لم يتحقق بعد . لأنه لا توجد حرب ليست بسبب أزمة مستحكمة ، أو لا تؤدى إلى ذلك . والأزمة موجودة فى إيران ، وقائمة فى العراق . والحسابات قديمة بين الدولة الفارسية والدولة العربية . وكلتاهما مسلمتان ..

والحروب بين الدول الصغرى ، كالحروب بين الدول العظمى . ليس فيها غالب أو مغلوب . إنما الضحايا على الجانبين هى الواقع المؤكد . وأولى ضحايا الحروب عادة : الحقيقة . ولذلك تكثر الأكاذيب فى أسباب الحروب ودوافعها وسيرها ونتائجها . وأول ما يعتاده المتحاربون : هو استطعام الكذب والهوس والتعطش إلى الدم والمناداة بالثأر . وبعد سنوات يتساءل المؤرخون : ولماذا كانت هذه الحرب ؟ ولا يجيب عن هذا السؤال عادة أحد . لأن الذين أشعلوها ماتوا وراحوا ضحاياها .. ولم يعودوا قادرين على الكلام . وبذلك تختفى الحروب كما بدأت فى غبار من الاجتهادات .

ولم تعرف الإنسانية فى تاريخها إلا حربا واحدة كان لها هدف واضح : إنها حرب طروادة . فقد كانت من أجل إنقاذ فتاة جميلة اسمها هيلين — حتى هذه الحرب كانت أسطورية ! ..

ولكن أقرب التفسيرات إلى العقل أنه بعد اختفاء شاه إيران لابد ان يكون للخليج سيد يحميه أو يحكمه . وقد حاول الإمام الخومينى أن يكون ذلك الشاه ، وأن يضع العمامة السوداء فى مكان الطاووس ، واستقرت العمامة السوداء والبيضاء على رءوس كثيرة .. وهددت بضياع التيجان فى الخليج أيضا .. وأشعلت الحماسة الدينية والتعصب فى كل مكان ..

ولكن الإمام الخومينى . أضاع الكسب العظيم الذى تحقق له . فبنفس الحماسة التى خرج بها على الشاه خرج أيضا عن الإسلام . فقد أثار قضية قديمة فى العالم كله : ما هو الاسلام ؟ فصدرت كتب كثيرة تشبع حب الغرب لمعرفة الإسلام الذى أبدع الخومينى . وحاول المؤرخون والعسكريون ورجال الدين أن يجدوا شيئا مماثلا لما فعله الخومينى .. وهل صحيح أن الخومينى هو بداية النهضة الدينية فى العالم كله . وهل ظهور الخومينى يدل على أن الإسلام لم يكمل ١٤ قرنا إنما بلغ ١٤ سنة من الشباب والحيوية . حتى إن شيخا فى الثمانين استطاع أن يفعل ما عجز عنه ملايين الشبان فى كل مكان . ولكن الإمام الخومينى قد وفر على العلماء والباحثين أن يذهبوا إلى أبعد من التنقيب فى تاريخ الإسلام . فقد سد عليهم الباب عندما تخضبت يداه بالدم وامتلأت بلاده بالجياع والمشردين بلا قضية ..

صدام حسين — الإمام الخميني

ولم يعد الناس يتساءلون : ما هو الإسلام إنما يتساءلون : ما هذا الإسلام الذى يؤمن به الخومينى ، ثم يدينه ويشينه أيضا ؟ ..

أما العراق فهو أيضا يريد أن يكون سيد الخليج بعد اختفاء الشاه الذى كان له جيش هو الثالث فى العالم كله .. هذا الجيش الذى أعده الشاه ليوقف النزاعات والتمزقات الداخلية ، والتوسع فى الخليج الفارسى ، وذلك بأن يسيطر تماما على الإمارات الصغيرة ذات مئات الألوف من الايرانيين والشيعة والذين يدينون بالولاء للشاهنشاه آريا مهرى محمد رضا بهلوى يرحمه الله .. وإذا كانت إيران فارسية مسلمة ، فإن العراق عربى مسلم . والعراق غنى وقوى . وله مطالب ومطامع ليست فى الخليج وحده ولكن فى العالم العربى كله .. وإذا كان العراق لم يفلح فى أن يسيطر على سوريا التى تشاركه المذهب السياسى البعثى ، فإنه قادر على أن يتجه إلى الناحية الأخرى . ويزداد قوة واقتدارا على إسقاط الرئيس الأسد وتوحيد جناحى البعث فى العراق وسوريا .. ولكى يصبح العراق قادرا على ذلك كان لابد أن يرفض الحزب الشيوعى . وأن يحاكم الشيوعيين ويستأصلهم أيما كانوا ، وفى ذلك أمان للسعودية وإمارات البترول الغنية . وبذلك يتجمعون تحت المظلة الأمريكية فى المنطقة ..

وإذا كانت أمريكا لا تستطيع أن تساعد العراق إلا بحساب ، فإن فرنسا تستطيع ذلك بدون حساب ، فكل ما ترفضه أمريكا تسارع فرنسا بالوفاء به ، وكل ما تقدمه روسيا للعراق ، يبادر العراق فيعلن أنه من أجل القضاء على التدخل الايرانى فى الشئون الداخلية للعراق . وفى ذلك إرضاء للسعودية التى لا تريد إيران أن تتدخل فى شئونها الداخلية : أى بعدائها للنظام الملكى وللمذهب الوهابى السنى ! ..

وكان الشاه قد اتفق مع العراق فى سنة ١٩٧٥ على أن يرفع يده عن مساعدة الانفصاليين الأكراد السنيين ، وفعل ذلك . وكافأه العراق على ذلك بإعطائه نصيبه من المرور فى شط العرب (٧٥ ميلا) ملتقى نهرى الدجلة والفرات . كما أعطاه العراق أرضا على الحدود . وبذلك تم الصلح بين ايران والعراق ، وكانت أفراح البهجة تعم البلدين . لأن كلا منهما قد حقق إنجازا عظيما . هذا الانجاز هو ألا تكون حرب بين إيران (٥٣ مليون نسمة) والعراق (١٣ مليون نسمة) . وكلتاهما من أغنى دول البترول فى العالم ..

أما الخومينى فلن ينسى أنه أقام طويلا فى العراق ، وأن ابنه قد قتل فى العراق بالاتفاق مع الشاه . وقد أنكر الشاه فى حديثى معه أنه هو الذى قتل ابن الإمام ، ثم إن العراق هو الذى طرد الإمام إلى فرنسا . وكان الشاه هو الذى طلب إلى فرنسا ذلك ، ليكون تحت رقابته . ولم يفلح . والرئيس الفرنسى ديستان هو الذى طلب من الرئيس الأمريكى أن يسارع بطرد الشاه والاعتراف بالخومينى . ولاينسى الخومينى أيضا أن العراق يساعد المنشقين على إيران والهاربين والمهاجرين . ويمدهم بالمال والسلاح . وأن العراق يساعد العرب فى إيران على الانفصال والاستقلال ..

أما العراق فيرى أن الإمام مايزال يساعد الشيعة على التمرد على الحكومة العراقية السنية . وقد كشف العراق أسلحة وأموالا ومنشورات سرية وإذاعات منتقلة موجهة إلى الشيعة ..

ثم إن العراق قد استفاد من الفرصة التى أتيحت له ليجرب جيشه القوى : ٢٠٠ ألف جندى وأربع فرق مشاة وأربع فرق مدرعة وفرقتان ميكانيكيتان و ٢٧٠٠ دبابة طراز ت ٥٤ و ٥٥ و ٦٢ سوفيتية و ١٠٠ دبابة فرنسية إم إكس حصل عليها العراق بمقتضى اتفاقية مع فرنسا سنة ١٩٧٨ و ٧٢ طائرة ميراج وصواريخ فرنسية جو – جو وجو – أرض و ١٧٠٠ مصفحة و ٣٥٠ طائرة مقاتلة روسية و ٣٠ زورقا حربيا فى شط العرب ..

والجيش العراقى يدين بالعقيدة البريطانية رغم السلاح السوفيتى الذى يحصل عليه بسهولة . ولكن السوفيت يخافون أن يتكرر فى العراق ماحدث فى مصر عندما اتجهت مصر إلى أمريكا والغرب بسبب التضييق على مصر فى الأسلحة وقطع الغيار ..

أما إيران فلديها أسلحة أمريكية متطورة جدا . ولكن هذه الأسلحة تنقصها قطع الغيار . وينقصها المدربون الأمريكان . وكان الجيش مرتبطا بالشاه شخصيا ولكنه فى آخر أيامه كما اعترف لى فى الحديث الذى نشرته قبل وفاته ، أنه لم يكن يستطيع أن يحرك طائرة من موقعها إلا بأمر من أمريكا ! ..

وكان ذلك أيضاً ردا على تساؤل من الرئيس السادات : ولماذا لاتأمر سلاح الطيران بأن يغادر البلاد ويأوى إلى مصر لتستخدمه عند الضرورة ؟ ! ..

والجيش الايرانى ٢٠٠ ألف جندى و ٨٧٥ دبابة من طراز شيفتن ، ثلثها معطل تماما .. وهناك صواريخ مضادة للدبابات و ٤٠٠ طائرة فانتوم وطائرات أخرى مقاتلة وقاذفات قنابل واعتراضية واستطلاع .. وتوجد قوات إيرانية فى أماكن متفرقة من إيران منضبطة ومجهزة تجهيزا كاملا . وتحتاج إلى وقت لنقلها إلى الحدود .. وفى نفس الوقت هناك تخوف من تحريكها حتى لاتقع فتنة داخلية ، أو انقلاب عسكرى بعد أن فشلت محاولات كثيرة للإطاحة بالإمام الخومينى . ولكن القوات البحرية ماتزال سليمة تماما . لأنها كانت بعيدة عن التدخل والنزاعات على السلطة فى الجيش الايرانى .

فى حرب الحسن والحسين : هل تحتاج إيران والعراق إلى "كامب دافيد" أخرى

حافظ الأسد

جيسكار ديستان

وهذا أول ، « امتحان للقبول » لإيران والعراق أيهما يستطيع أن يكون سيد الخليج ، وبعده سيد العالم العربى . .

أما دول الخليج فهى ترقب فى صمت ، أو تحاول أن تؤيد فى سرية تماما . ومن المؤكد أنها لاتتمنى لإيران أن تنتصر ولاتتمنى للعراق أيضا . ولكن تتطلع إلى التدخل الأمريكى أو الأوربى ليوقف هذه الحرب ، وليوقف التدخل السوفيتى . ومن الواضح أنه ليس من آمال العراق أن تستولى على إيران ، ولا إيران أن تستولى على العراق . فليس الخطر من إحدى الدولتين ، إنما الخطر من داخل الدولتين . . وكذلك الخطر على دول الخليج من داخلها وليس من خارجها . ولذلك فأمريكا المرتبطة بكل دول البترول ، يجب أن تفعل شيئا غير التهديد والتردد فى التهديد خوفا من السوفيت وخوفا من المعركة الانتخابية . .

وقد اختارت أمريكا الحد الأدنى من الخطأ والخطر فى مواجهة الموقف فى الخليج . فأعلنت فى يناير الماضى – وكان تهويشا – أنها سوف تحمى آبار البترول . وعادت فكررت ذلك منذ أيام . فأدانت أمريكا نفسها فى أول

جيمى كارتر

رونالد ريجان

لحظة . إذ صرحت بأن كل مايربطها بهذه المنطقة هو البترول المتدفق منها : فلا سياسة ولاصداقة ولاحرية ولا الوقوف معا ضد السوفيت ولاحقوق الإنسان ولا الاستقرار . .

كما أن موقف أمريكا من شاه إيران قد أساء لها فى العالم كله . فقد كان الشاه أعز أصدقائها . فتخلت عنه . بل ساعدت على إسقاطه . فالشاه صديق نموذجى . وموقف أمريكا نموذجى أيضا . والنتيجة : لاصديق لها ولا أمان معها ! . .

وطبيعى جدا أن تفزع كل دول البترول التى ترتبط بأمريكا ماليا وأدبيا واستراتيجيا ومذهبيا . .

وبدأ الدبلوماسيون الأمريكان فى الشرق الأوسط ينصحون حكوماتهم التى لم تفهم إيران . ولم تبادر بعمل شىء لإنقاذ الشاه أو إنقاذ إيران من الخومينى

وكل مافعلته أمريكا هو أنها كانت تزود الشاه بالغاز المسيل للدموع . . ستة شهور حتى سالت دموع الملايين فى إيران . ثم توقفت عن تصدير غاز الدموع ، فحبس الشاه عشرات الألوف فى السجون . . ولما أرسلت له أمريكا مزيدا من الغاز أطلقهم الشاه فى الشوارع . . وكانت هذه واحدة من أخطائه المميتة . حتى جفت الدموع ولم تبق إلا دمعة واحدة فى عينى الشاه ! . .

واحتجزت إيران خمسين رهينة أمريكية . وجمدت أمريكا أموال إيران وحاصرتها بحريا . وحاولت فى عملية عسكرية رائعة أن تستخلص الرهائن . وفشلت . وكان فشلها فضيحة كبرى لأمريكا . ودليلا على عجزها الفخم الأنيق فى عمل شىء رغم قوتها وقدرتها . وجاء ذلك برهاناً جديدا على أن الدول العظمى ليست عظمى فى كل شىء ، وأن الدول الصغرى ليست صغرى دائما ! . .

واتخذت أمريكا ١٥ قاعدة بحرية وجوية وبرية فى الصومال وجيبوتى وعمان ، وحصلت على تسهيلات عسكرية فى مصر لمواجهة أخطار وأخطاء المستقبل فى الشرق الأوسط . وأعدت لذلك جيشا من ربع مليون جندى يتكلف عشرين بليون دولار فى خمس سنوات . وجعلت لهذه القوات اسم

« قوات الانتشار السريع » لمواجهة أى تدخل سوفيتى . فهل استطاعت شيئا عندما تدخل السوفيت فى أفغانستان واليمن الجنوبية وأثيوبيا وليبيا ؟ ! . .

إنها عقدة فيتنام – أى الحرب فى فيتنام بقوانها ثم هزيمتها رغم جبروتها العلمى فى الحرب . وأصبحت أمريكا ترى فيتنام فى كل مكان . أى ترى هزيمتها فى كل معركة . ولذلك ظلت أمريكا على سياسة استغرقت ثلاثين عاما هى : أن تهدد بالقوة دون استخدامها . .

والوضع عجيب الآن : إيران أسلحتها أمريكية ولن تلقى قطع غيار من أمريكا حتى لو أفرجت عن الرهائن ، لأن أمريكا وراء الغزو العراقى المدعم بالسلاح السوفيتى . .

ولأن السوفيت يؤيدون الرئيس كارتر ضد ريجان الذى ينادى بالحرب ، فإنهم يضغطون على إيران للإفراج عن الرهائن . وفى نفس الوقت فإن السوفيت ضد المد الدينى الذى أشاعه الخومينى فى الولايات الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى . . وسوف يمضى السوفيت فى إمداد العراق بالسلاح . رغم مذابح الشيوعيين فى العراق . .

أما الاتحاد السوفيتى فقد غير أسلوبه التقليدى ، وذلك بسبب عقدة فيتنام الأمريكية . فإذا كان الأمريكان لايحاربون مباشرة . فالروس يحاربون مباشرة فى أفغانستان . وقبل ذلك فى المجر وتشكوسلوفاكيا – أى أنهم يحاربون فى الدول التى يحتلونها وفى الدول التى تقع على حدود السوفيت . ولا يهمهم كثيرا أسطورة « الوفاق » أى عدم اللجوء إلى المواجهة العسكرية لأى سبب . . وقد أدى ذلك إلى أن دخلت قوات شيوعية كوبية وألمانية شرقية إلى أفريقيا والى آسيا بالسلاح السوفيتى دون أن تملك لهم أمريكا شيئا . إلا حق الاعتراض ، وقد اعتاد العالم على الاعتراض الأمريكى ، والاحتقار السوفيتى لذلك . وليس أمام أصدقاء أمريكا إلا أن يمضغوا خيبة الأمل ! . .

ومنذ ثلاث سنوات حاول الرئيس السادات أن يقنع الكونجرس الأمريكى والادارة الأمريكية بالمد السوفيتى فى آسيا وأفريقيا . ولكن الأمريكان لايريدون . فقد عقدت ألسنتهم « عقدة » فيتنام . ولابد أنهم سعداء بإضافتهم عقدة جديدة فى « قاموس علم النفس » إلى عقدتى أوديب والكترا . . وبذلك يتأكد للعالم أن الشعب الأمريكى طفل لم يستطع أن يتغلب على مخاوفه فى ثلاثين عاما . ولذلك أقبل الناخبون على المرشح ريجان لأنه يريد أن يبنى هيبة أمريكا على خيبتها فى العالم كله – وفى الشرق الأوسط بصفة خاصة ، وفى الخليج بصفة أخص !.

وسوف تفلح الوساطة فى وقف إطلاق النار بين دولتين بتروليتين اسلاميتين . .

ولكن ماالذى كشفته هذه الحرب لنا ولهم ؟ إن هذه الحرب فى لغة العرب مثل كبشين تناطحا – فقط . دون أن يحقق ذلك أمام قطيع الأغنام شيئا جديدا .

ولكن المعنى الذى وضح لنا الآن هو : أن الشرق الأوسط يذكرنا بما كانت عليه دول البلقان بعد الحرب العالمية الأولى . ودول أمريكا اللاتينية بعد الحرب العالمية الثانية . فلا توجد دولتان متجاورتان لايجمع بينهما الخوف والتربص والرغبة فى الانتقام . . فهى دول صغيرة يثور بعضها على بعض . . وتسكت دون سلام ولاتجنى من ذلك شيئا . وأمامك خريطة الشرق العربى : تمزق وخلافات وصراع . ثم هذه الوحدة التى كانت تجمع بينها ، إنها وحدة الدموع والدماء بلا قضية !..

مرة واحدة يوم ٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ أحس الأمريكان بالعار القومى . . وانتقموا لذلك . . يوم أغرقت اليابان الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربور ، بجزر هاواى !..

ومرة واحدة استعرضت أمريكا واكدت للسوفيت أنها قادرة على الذهاب إلى أى مكان بمنتهى الحزم والحسم : عندما توقف السفير التركى بالولايات المتحدة محمد منير ارتجين يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٤٤ . وقد نقلته « ميسورى » أقوى قطعة بحرية يوم ٢٢ مارس مارة بجبل طارق لتتوقف لحظة ليضع الحاكم البريطانى إكليلا من الغار على نعش الفقيد . ودخلت ميسورى ووراءها قطع الأسطول الأمريكى مضيق الدردنيل ، ولتكون الموضوع الرئيسى فى الصحف التركية والفقرة الأولى فى الإذاعات العالمية . . يومها أكد الأمريكان أن ذراعهم طويلة ، وأنها قوية أيضا . . قادرة على نقل الموت إلى أى مكان مهما كان قريبا من السوفيت . .

وبعد ذلك مانراه ونعرفه الآن : الخوف من أية فيتنام أخرى ؟ !

وإذا ذهب أحد فى وساطته بين العراق وإيران ، وهما دولتان إسلاميتان . إلى محاولة لعقد صلح بينهما ، فهى فرصتنا لنرى كيف تكون المفاوضات والجلوس معا من أجل الأمن ومن أجل الحكم الذاتى للشعوب العربية فى إيران والكردية والفارسية فى العراق وبقية القوميات الأخرى . .

وهل هى أمريكا أو روسيا القادرة على أن يكون سلام فى الخليج بين الحسن والحسين . . الحسن بنى صدر وصدام حسين !

وسوف يجد الجميع أن لابد من اتفاقية « كامب دافيد » أخرى أو اتفاقية جنيف أو اتفاقية الكرملين أو اتفاقية الاليزيه بين الفرس والعرب ، لامن أجل سلام الخليج فقط ، ولكن من أجل أن يتدفق البترول إلى الدول الغربية مارا بالمضايق الحيوية : هرمز وباب المندب وقناة السويس والدردنيل وقناة بنما . .

فهل يقتنع العرب بأنه من أجل السلام لابد من الاتفاق على الحوار . . ولا حوار مباشرا بلا مواجهة . ولا مواجهة بلا صعوبات ولاصعوبات بلا أمل فى التغلب عليها من أجل مزيد من الحوار . . حتى يتحقق السلام بين كل الدول العربية الإسلامية المتجاورة فى لبنان وسوريا والعراق والكويت وإيران والجزائر والمغرب وليبيا وتشاد واليمن واليمن !

ومصر لم تنفرد بالفكر كله ، وبالواقعية جميعها . . ولكن عندنا الشجاعة فقط فى أن نعترف بالمحاولة والخطأ ، ومن حقنا إذا نجحنا أن نفخر بذلك ومن حقهم أيضاً !

□